قصّتان قصيرتان

عبد الرحمن مجيد الربيعي

١ - هي :

يُقبّل المطر الشوارع المسائية بنثيث فاتر ومُفاجيء بعد أن اعتصرها الحر ومدَّ مجساته على شهورِ الخريف الأولى وأمسك بها.

كنتُ أجلس جوار صاحبي المهموم بأوجاع ظهره في سيارته التي كانت تأخذ طريقها متهاديةً نحو فندق «المشتل» تلبيةً لموعد مع صديق آخر يقوم بزيارة عمل لتونس.

ولاحت أمامنا قامةُ امرأة تحاول أن تعبر الشارع رغم تكاثُف الحركة فيه، وكانت ترفع رأسها إلى إعلى دون أن تتخبأ تحت مظلة كما يفعل الآخرون، وكأنها بعملها هذا تودُّ استنشاق المطر أو كأنها تتحدَّى رذاذه المُنهمر.

لكزت صاحبي وقلتُ له:

- تمهّل. دع السيدة تعبر. أرأيت قامةً أرشقَ من قامتها؟.

ويبدو أن صاحبي قد انتبه إليها قبل أن أنطق بكلماتي هذه. ولعله انشغل بقامتها المُبحرة بتأملٍ وتمهّل غير معترفة بأصوات مُنبهات السيارات وعيون المارة الذين يخترقون الشارع مسرعين.

وعندما صارت السيارة قريبة منها ضغط على كابحها فتوقفتْ، وكان ضوء السيارة الكاشف قد أظهر ملامح وجهها فهتفتُ:

- إنها هي.

وانتبه إلى صوتي بعد أن عبرتْ وتساءل:

- ومَنْ هي؟.

أجبتُه ببساطة:

- هي.

وتمتم كأنه يُكلم نفسه، ثم انشغل عني للحظات في تحريك سيارته وبعد أن أخذ طريقه قال:

- إنك تهذي، هل بك شيء؟.

قلت على الفور:

- أبداً.

وعاد صوتُه للقول:

- أتساءل مَنْ هي؟ فتقول هي، تُفسر الماء بالماء بعد جهدٍ.

ونطقتُ وأنا أراقب كاسحتي المطر في حركتهما نصف الدائرية:

- إنها هي وكفى. وإن جئتَكَ بأي اسم فلن يتغير من الأمر شيء.

كانت هي فعلاً. وكان ذلك مُفاجئاً لي إذ لم أتوقع رؤيتها، كأنها امرأة لا تمشي على الأرض. ولا تشارك الآخرين وقائع حياتهم.

لقد لذنا إلى هذا الشارع علّنا نجده أقل ازدحاماً في مثل هذه الساعة التي يُغادر فيها الموظّفون أماكن عملهم. ثم جاء المطر ليُربك السير أكثر ويكثّف الازدحام.

عبرتْ الشارع واختفتْ بين الناس دون أن تعرف أنني ارتشفتُ دفقةً من بهائها ملأتْني بنوبةِ فرح كنتُ بحاجة إليها في أمسية الحزن هذه التي أحاول تجاوزها.

دفقة من بهائها هي دفقة نور، دفقة موسيقى، دفقة عطر خلفتْ في قلبي سلاماً ناعماً ومضتْ.

- ما لك ساكت؟.

قلت:

- وماذا تريدني أن أقول؟.

نطق بعد أن تأوه قليلاً من صليل الوجع في ظهره:

- أي شيء، غنّ مثلاً. المهم أن لا تظل واجماً هكذا كأنك أخرس بعد أن كررت الصراخ كالطفل: إنها هي، إنها هي.

وبقيتُ على مراقبتي إلى حركة كاسحتي المطر وأنا أتمتم بصوت لم أحرص على أن يسمعه:

- ولكنها كانت هي فعلاً.

تونس العاصمة ١٩٩٠

٢ - رنين :

تتراكم الأيام، يكبر تلُّ الانتظار، لكن الحياة لا تدب في آلة التليفون فتتوقّد بالرنين الآخر، المُختلف، فأهرع إليها، أرفع السماعة وأنطق بتلك الكلمة المُلاكة «آلو» فيأتي صوتها.

لا بد أن الرنين سيكون غيرَ هذا الرنين المُعتاد إذا كانت أناملها هي التي تدير رقم هاتفي، أما كل رنين عداه فإنني لا أهرع إليه وأتركه يتردد بعض الوقت قبل أن أرد لأنني موقنٌ بأنه ليس منها، ورغم أنفي لم ألتق بصوتها مرةً واحدة في هذا الجهاز العجائبي حتى أستطيع أن أميّز الرنين الذي يسبقه وأصفه إلا أنني أقول بجزم إنه سيكون مختلفاً، كيف؟ لا أدري!.

إنني أنتظر، هذا كل ما أقدر عليه الآن، تكبر الأشداق

المفتوحة، يكبر الشوق، لكنني أيضاً أعرف بأن عينيها لن تذهبا إلى دفتر أرقام الهواتف ولن تُنقّبا عن اسمي وتُمسكا برقمي وتتوقّفا عنده، لماذا تفعل ذلك؟ ولأي سبب؟.

لكنني أعيش وهمَ أن تفعل ذلك ما دمتُ قد كتبتُ لها الرقم. هكذا أنا، لقد وقعتُ في الشبكة والتفّتْ عليَّ خيوطها ولا قدرَة لي على الخروج منها.

أن يعيش المرءُ على وهمٍ أجدى بكثير من أن يعيش بلا وهم، وقد اعتدتُ التشبُّثَ بأطرافِ الأوهام واستطعتُ أن أجعل البعض منها حقائقَ بيضاء.

أحياناً وأنا مع الآخرين بعيداً عن البيت، أنغمر بالصخب والثرثرة أو ارتشاف كؤوس الخمرة فيداهمني وجهها، ينبت أمامي بنداه ونعومته، وأرى هلاله متعالياً في سمائي. ثم يأتيني صوتها وهو يسألني بعتاب:

ـ كيف غادرتَ؟ ألا تعرف بأنني سأطلبك؟ فأنظر إلى ساعتي. وتتحرك شفتاي باحثتين عن كلماتٍ مناسِبة أنطقها، وعندما يراني رفاق المائدة على هذا الوضع يهبُّ البعضُ منهم متسائلاً:

ـ لماذا تنظر في ساعتك؟ ماذا وراءك؟.

فأنطق وأجيب:

ـ لديَّ موعدٌ مهمّ أنسيتموني إيّاه.

ولكنهم لا يذعنون لاعتذاري ويلحّون عليَّ بالبقاء، ومع هذا يستجيبون لإصراري فأصافحهم مودعاً وأخرج.

أعانق وحدتي وانتظاري، أعبث بمؤشر الراديو، أثرثر على الورق، أشرب القهوة ثم الشاي ثم المبردات. وقد يرن التليفون فأمدّ يدي نحوه بآليّةٍ وأرد ولكن وَقْدَةَ الحماس غائبة عن صوتي ولا تُشَمُّ منه إلا رائحة الخيبة.

أعيد السمّاعة لتجثم في عشها مُتنعمة بخرسها وبلادتها.

أضع يدي على خدي وأطيل النظر إلى آلة التليفون، لونها، حجمها، أرقامها التي تُكبس ولا تُدار كما في آلات أخرى، تُرى كيف هي آلة تليفونها؟ هل تُكبس أرقامها؟ أم أنها تُدار؟ إنني أحب الآلةَ التي تُدار أرقامها إذ إن إدارة كل رقم تستغرق وقتاً أطول وتأكيداً أكثر.

أين الرنين المُختلف؟ كيف سيكون؟ ومتى يأتيني فأهرع إليه؟.

يتجاوز الليل منتصفه فأسحب جسدي نحو فراشه. أذهب إليه وئيداً منهّداً وآلة التليفون بيدي لأضعها جواري علّها ترنّ ويكون رنينها مختلفاً فأتنفس ذلك الصوت ثم أشربه.

صفاقس (تونس) ١٩٩٠.

صدر حديثاً

فاروق عبد القادر

رؤى الواقع وهموم الثورة المعاصرة

دراسات في المسرح المعاصر

دار الآداب ـ بيروت